اللورد روبرت بادن باول

الكشاف الأعظم العالمى

للأديب خميس زهران

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

انطلق بادن باول ومعه زميله إدوارد سيمل لتنفيذ التدابير التى ارتآياها . فوضع كل للتدريبين فى خط القتال وأخذ يجمع الأحداث الذين تتراوح أعمارهم بين ١٢ ، ١٦ سنة وألف منهم فرقة ألبسها الزى العسكرى وعهد إليهم ببعض الأعمال مثل نقل البريد والمؤونة والأشارات وحراسة المخازن وغير ذلك من الأعمال التى تحتاج إلى نشاط أكثر من احتياجها إلى تمرين « لقد كانوا فتياناً لا يسددون الرماية ، ولكنهم كانوا يركضون حولنا كالأرانب » . وشرع هو ورجاله فى حفر الخنادق حول المدينة لتكون بمأمن من الأعداء

« كان لكل رجل قيمة وبما أن عددهم أخذ فى النقصان شيئاً فشيئاً بسبب سقوط القتلى والجرحى ، أصبحت واجبات القتال والمراقبة ليلاً أصعب على الباقين . ثم إن اللورد إدوارد سيمل رئيس أركان الحرب جمع الأولاد فى المكان وجعل منهم فرقة تلامذة حربيين وألبسهم وشرع فى تدريبهم وأصبحوا بعد حين جماعة لبقين منظمين ، وكنا حتى ذلك الحين نستعين بعدد وافر من الرجال لحمل الأوامر والرسائل والمراقبة وأمثال ذلك . فأضحت هذه الواجبات الآن على التلامذة الحربيين وذهب الرجال لتدعيم خط النار

ولقد أدى هؤلاء الأولاد تحت رئاسة « جودير » أعظم خدمة واستحقوا الأوسمة التى نالوها عند نهاية الحرب . كان معظم هؤلاء يحسن ركوب الدراجة ، لذلك تمكنا من تأسيس بريد ، استطاع الناس بواسطته إرسال الخطابات إلى رفاقهم الموجودين فى مختلف القلاع أو حول المدينة دون أن يعرضوا أنفسهم لخط النار . وجعلنا لهذه الرسائل طوابع بريد رسم عليها صورة تلميذ حربى يركب دراجة

قلت لأحد الأولاد مرة عند ما جاء تحت وابل من النيران : ستصاب يوماً وأنت تركب على هذه الصورة والشرر يتطاير من كل صوب . فأجاب : سيدى إننى أنطلق سريعاً بالدراجة ولن يستطيعوا الوصول إلىّ .

المسجد وقد رأينا عرابياً وهم بنا صاحبى أن نعود .

ونحن وقوف على هذه الحال إلى حائط البيت انتهت إلى الباب عربة عرابى ونزل منها أمامنا يتمهّل ووقع بصره علينا ، وبعد دقيقة أو دقيقتين وقد همت بالتقدم للسلام عليه نادانى : ألست أنت « عربى » الشيخ على نجم ؟

وسألنى وصاحبى فقصصت عليه كيف جئنا وما قال لنا خدمه وابنه ؛ وكنا دخلنا معه وقربنا إلى حيث يجلس يستقبل ؛ فلما سمع منا تغير لونه ووقف ووقفنا ؛ ثم رجع إلى أول الحديقة ونادى ابنه الذى استقبلنا وطلب معه من فى البيت من اخوته ثم وقف وهم جميعاً أمامه ، فخدثهم باللغة التركية حديثاً طويلاً كان فيه ظاهر الغضب . وقد وقفوا جميعاً أمامه صفاً واحداً رؤوسهم على صدورهم مشتبكة أيديهم كأنهم فى صلاة ؛ ثم قال ختام كلامه باللغة العربية ، وقد فهمنا منه غضبته وما حدث أبناءه — وخدمه واقفون — باللغة التركية ؛ وكان ختام عرابى باشا حديث أبنائه كأنى أسمعه الآن يقول مشيراً إلىّ وإلى صاحبى :

هذا زميلى فى الكتّاب ، وهذا عربى جلست إليه يسمع منى القرآن فهو معلمى ؛ وأنا فلاح ابن فلاح تحدرت من أصلابهم وأنا بهم فخور ، فخور بأنى نشأت ولعبت فى الماء والطين معهم ؛ وأنا عرابى باشا ، ولكنى فلاح ومن قرية « هرّية » ، وهؤلاء الفلاحون هم أهلى وعشيرتى ومنهم دمى ، فمن جاء منهم إلى لا يجلس بالباب .

ثم أمر أولاده فانصرفوا وهم سكوت ؛ ودخلنا فجلس معنا ساعات يحدثنا عن صبانا وأيام الطفولة ويسألنا عن رفقاء الكتاب . وأراد أن يستبقينا ليلتنا فشكرنا واعتذرنا . ولم يتركنا عرابى باشا حتى خرج معنا خطوات من حجرته واستحلفنا أن نعود إليه وأن نرانا

قال محدثى الشيخ المعمر : ولم يشأ الله أن نزوره ولا أن نراه . ولكننا نحبه كما كان يحبنا

قلت يرحمك الله أيها الشيخ كما يرحم الله عرابياً البطل الفلاح

محمود الشرقاوى

يظهر أن هؤلاء الأولاد لم يفكروا في القذائف قط : كانوا دائماً على استعداد لتنفيذ الأوامر مع أن الخطر كان منهم على قاب قوسين أو أدنى . وهكذا سارت المدينة في حركة ونشاط متواصلين وقد سرت في نفوس الجميع روح الثقة والأمل

فإن نعجب فلنعجب لهذا الساحر كيف أوتى هذه الجاذبية المدهشة التي سرعان ما أحالت الحامية خلقاً جديداً وأشاعت في جنودها النشاط والرغبة في العمل

وحدث في تلك الأثناء حادث طريف يدل على ذكائه الفطري فقد نصب أعلاماً سوداء حول المراعي الخضراء موهماً العدو أنها ملأى بالمفرقعات والألغام لكي يتقي شر الإغارة عليها ولتبقى سليمة ترعى فيها إبله وماشيته وهما قوام حياة جيشه المحاصر . فلما رأى جنود العدو هذه الأعلام ساروا في طريقهم ولم يصوبوا أفواه بنادقهم ولا قذائفهم صوب هـذه المراعي خشية انفجار المفرقعات المهلكة والتي ظنوها شراكا منصوبا لهم . ومما ساعد على نجاح خدعته هـذه أن حدث أن الأعداء أطلقوا أعيرتهم النارية على إحدى عربات السكك الحديدية ظانين أن بها بعض رجال الحامية الإنجليزية ولم يكن بها إلا مفرقعات حقيقية فالبثت أن تطايرت الشظايا والمفرقعات فأصابت الثلث منهم . وهكذا سنحت الفرصة لرجال الحامية الذين هجموا على الأعداء فأدخلوا الذعر في قلوبهم وجعلوهم يلوذون بالفرار

تلك واقعة واحدة سقناها للتدليل على شجاعة بادن باول في تلك الحرب التي استمر لظاها مدة ٢٨٠ يوماً وانتهت بأن طلب قائد الجيش البويرى الصلح حقناً للدماء معترفاً بما أبدته تلك الحامية الضئيلة العدد من البسالة الفائقة والمقدرة النادرة

ولنترك الآن روبرت نفسه يصف الحالة أثناء الحصار بتلك الجمل التي خاطب بها رجال حاميته مفكنج بعد أن فك الحصار عنها ومودعاً لهم « لقد كان مثلنا إبان ذلك الحصار كمثل أسرة سعيدة واحدة ، والآن جاء وقت الفراق . إني أذكر أني قلت لكم يوم أن حوصرنا وتقطعت بنا الأسباب : اربضوا ربضة الأسود . صوبوا إلى المرمى بنادقكم . ولقد قمتم بذلك خير قيام فكانت النتيجة ما ترون . ولقد أثنوا على شخصي الضعيف ، ولهجت الألسن بذكري والثناء عليّ الثناء كله وفاتهم أنه من السهل أن يكون المرء ربان سفينة ونسوا الحامية التي هي شراع السفينة مفكنج التي أخرجتها من العواصف القاصفة والزعازع المتلفة وأوصلتها إلى الميناء بسلام »

كل هذا حدث بفضل بادن باول الذي كان الناس يشكون في نجاحه في هذا الحصار ولكنه بجده ونشاطه ومثابرته على العمل وإيمانه بقدرته على النصر تمكن من التغلب على الصعاب التي اعترضته وفاز بنصر مبين رفعه إلى أوج المجد والشهرة

حياة بادن باول الملأى بالمجازفات والأخطار وما شاهده من بطولة الصغار في ظروف عدة وما لديهم من قوى كامنة تدفعهم لاختراق النيران بنية القيام بالواجب ، وجعل الجنود بمعرفة الاتجاهات واستعمال الفؤوس في الغابات ، وجعلهم أيضاً إيقاد نار في يوم اشتدت فيه الرياح أو هطلت فيه الأمطار : كل هذه أوحت إليه المبدأ الذي نسير عليه

فلما وضعت حرب البوير أوزارها آلى السير روبرت بادن باول على نفسه أن ينشر نظام الفتية الصغار بطريقة أوسع وأنظم في بريطانيا العظمى إذا ما ألقى عصاه بها . ولما رجع إلى وطنه لم يأل جهداً في تنفيذ فكرته فأقام معسكراً تدريبياً في جزيرة صغيرة تسمى برونس ونجح نجاحاً جاوز الآمال فيه . شجع نجاح ذلك المعسكر السير روبرت بادن باول على المضي قُدُماً فجاهر بفكرته وأعلنها للملأ ؛ فتندّد بها الاستعماريون لما فيها من إخاء عالمي ولما تحويه من إزالة الفوارق الصناعية بين الإنسان وأخيه الإنسان ؛ وازدراها الاشتراكيون لأنهم توهموها عسكرية مقنعة ليس فيها الخير الإنسانية من شيء ، وسخر كثير من زيها ورأوا فيه خروجاً عن اللياقة وضرباً من التصابي ، فصمد لهم جميعاً وصابرهم إلى أن أصدر كتابه "Scouting for Boys" في ربيع سنة ١٩٠٨ وقد وجه فيه الخطاب للفتيان أنفسهم فأقبلوا عليه إقبالاً عظيماً والتهموا ما فيه التهاماً ، وانخرطوا في سلك الحركة مؤمنين بمبادئها مصدقين بتعاليمها

وفي عام ١٩١٠ أسست الكشافة ليتعلم فيها معتنقوها الصبر واحتمال المكاره والاستمساك بالعقيدة والاستهانة بكل شيء في الحياة عداها ، ولتفهم البساطة والحياة الطبيعية لتطهر نفوسهم من الأطماع ولتخلص من الدسائس والهواجس فيجتمع لكل

أبنائها إرادة قوية وعزم من حديد ، فإذا اجتمع للانسان الإرادة وطهرت نفسه وقوى إيمانه بفكرته فمن ذا الذى يستطيع أن يقف فى طريقه ؟

وعاش الكشافون عيشة التقشف : ألم يعش الخلفاء الراشدون عيشة الفقر وأملاك دولتهم تمتد وتتسع ، ورقعة امبراطوريتهم تعظم وتترامى ؟ ألم يكن رداء عمر (مرقعة) ذهب أصلها وبقيت رقعها وجيوش المسلمين تهد امبراطورية الروم ؟ ألم يرسم محمد صلى الله عليه وسلم للقادة والزعماء وأصحاب الرسالات والمبادئ والعقائد دستوراً جليلاً حكيما حين قال : « طوبى لمن أنفق مالاً اكتسبه من غير معصية ، وجالس أهل الفقه والحكمة ، وخالط أهل الذل والمسكنة . اللهم أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً وأدخلني فى زمرة المساكين » . اتخذ بادن باول لجماعته زيّاً خاصاً خاكى اللون رخيص الثمن بسيط المظهر ؛ وشجعهم على عقد الاجتماعات والقيام بالرحلات والمخيمات ، وعلمهم الاقتصاد فى معيشتهم ، وعودهم إلى الأخوة فى مآكلهم ومشربهم ، والمحبة فى معاملاتهم والإخلاص فى صداقتهم ، ومنعهم عن التدخين وشرب الخمور ، وحرم عليهم الفسق والفجور ، ليحفظ لهم صحة أجسادهم وقوة أبدانهم وسلامة عقولهم وبارز شخصياتهم ووافر كرامتهم . لم يكن وقت التمرين قاصراً على التربية البدنية ، بل تعداها إلى التربية الروحية ؛ فأقام المخيمات التدريبية لبث الروح العسكرية فيهم ، وألقى المحاضرات التاريخية ليزيدهم تعلقاً بكل ما هو قومى ، ومحبة لكل ما هو وطنى ، وأذكى فيهم شعلة الحماس بالأغانى القومية والأناشيد الوطنية . ويعزى السبب فى انتشار الكشافة إلى إيمان بادن باول وعقيدته فى صحة ما يدعو إليه . ولا غرو ، فإن أصحاب المذاهب والمبادىء الاجتماعية الكبرى التى أثرت فى تاريخ العالم وغيرت مجراه لم يتمكنوا من جذب النفوس إلى مبادئها إلا بعد أن تملوا بخمرتها ، وبذلك أمكنهم توليد تلك القوة العظيمة الأثر فى النفوس ، ألا وهى الإيمان ، وهى التى تجعل المرء عبداً لمذاهبه .

وقد تزوج اللورد روبرت بادن باول فى اكتوبر سنة ١٩١٣ بمس أوليف ورزق منها ولداً وابنتين ، وانتخب كشافاً أعظم للعالم فى أول معسكر دولى أقيم فى انجلترا سنة ١٩٢٠ ، ولقد أنعم عليه صاحب الجلالة ملك بريطانيا العظمى جورج الخامس عام ١٩٣٠ بلقب لورد جزاء وفاقاً على قام ما به من عمل جليل .

وكرمته جامعة ليفربول ومنحته لقب دكتور فى القانون (L. L. D.) ولقد جمع اللورد بادن باول خريجى معهد جلويل بارك Gilwell Park المخصص لتدريب معلمى الكشافة على فنونها المختلفة نظرياً وعملياً ، وهو قصر فخم وسط ضيعة كبيرة فى مقاطعة اسكس بالقرب من لندن وسألهم أن ينتخبوا له اسمه الجديد الذى يضاف عادة بعد اللوردية فأجمعوا على جلويل فاغتبط به وأظهر ارتياحه

فبادن باول رجل خليق أن يعلم عنه شيئاً وأن يشغل حيزاً فى ذاكرة كل فرد منا ومكانة فى نفس كل واحد ؛ ولا غرو إذا تقدمنا لقراء الرسالة بسيرة هذا البطل إعجاباً بهذا الطراز الجديد من الرجال وهم الذين لم يشهدوا فى عصرنا غير رجال مزيفين من الحوائى . رجال أو أشباه رجال ولا رجال ممن لم يحذقوا غير التخنث والأناقة ولم يبرعوا فى غير الخبث والمكر ومضغ الكلام وترجيج الحواجب ! أو بالاختصار رجال من أولئك الذين تلقى بهم المصادفة فى طريق العظماء وتأتى بهم الظروف إلى مجالس الأمراء وأهل الخطر والشأو البعيد . وما أوسع المسافة بين أمثال هؤلاء وبين هذا الرجل النبيل المعزز الجانب الذى تعبق منه روائح المسكر والخيام كما يعبق منه أريج الخدع والصالون ! رجل وأى رجل !

من كان يذود بخلده أن صبى فرنسا وصبى استراليا وصبى مصر وصبى أمريكا يتلاقون فى مكان واحد : لا يفرقهم جنس ولا تنفرهم ديانة ولا تبعدهم لغة أو سياسة ؟ ومن كان يتوهم ولو على سبيل التفكهة أو المداعبة أن ابن مصر الشرقى الناطق بالضاد تأخذه العصبية الكشفية فينهض إلى منافسة ابن التامز الغربى فى اعتناق مذهب التربية الحديث

إنها آية الكشف وإنها معجزة بادن باول أن يتألف الشباب حول المبادئ الكشفية ، وإن شئت فقل إنها مبادئ الشباب الحديث الذى يريد أن يرث الأرض جميعاً لا فرق عنده بين وطن وغربة

إن شئت فقل عنها إنها آداب المعاشرة وآداب المؤاكلة وآداب العائلة وآداب الإنسانية وآداب المجتمع الراقى وآداب الحياة الصحيحة الخالية من شوائب السعادة . فما أعذبها مبادئ لو أن السياسة تتركها وشأنها فى الدنيا دون أن تمكر لها صفو أو تكدر لها مجتمعاً

إنما هى فى الواقع توحيد لنظم التربية وعامل قوى لإزالة